أزهار الرياض فى أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الثالث

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقترى التلمسانى ، تحقيق: على عمر
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
3مج ، سم
تدمك : 978-977-341-497-9
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر،على (محقق)
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16753

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم

روضة الأقحوان

فى ذكر حاله فى المنشأ والعنفوان

أقول ومن الله أسأل التأييد والعون، والوقاية والصون:

عقدنا هذه الترجمة الثانية لبيان حاله، فى حله وترحاله.

فاعلم أرشدنا الله وإياك إلى طريق الرضوان، وجنب جميعنا مسالك الذل والهوان، أن حال هذا الإمام لا تفى بها عبارتى القاصرة، ولا تحيط إشارتى بمن عقد الفضل عليه خناصره. وما أجد لبعض ذلك مثالاً إلاّ بعض قول الرئيس القاضى الكاتب أبى يحيى بن عاصم، عند ما عرف بأبيه صاحب التحفة وقال فيه ما نصه:

مولاى الوالد يكنى أبا بكر، إن بسطت القول، وعددت الطول، وأحكمت الأوصاف، وتوخيت الإنصاف، أنفدت الطروس، وكنت كما يقول الناس فى المثل: «من مدح العروس». وإن أضربت عن ذلك صفحا، وآثرت غضا من البنوة وسفحا، فلبئسما صنعت، ولشد ما أمسكت المعروف ومنعت، ولكم من حقوق الأبوة أضعت، ومن ثدى المعقة رضعت، ومن شيطان لغمصة الحق أطعت، ولم أرد إلاّ الإصلاح ما استطعت، وإن توسطت واقتصرت، وأوجزت واختصرت، فلا الحقَّ نصرت، ولا أفنان البلاغة هصرت، ولا سبيل الرشد أبصرت، ولا عن هوى الحسدة أقصرت.

هذا ولو أنى أجهدت ألسنة البلاغة فجهدت، وأيقظت عيون الإجادة

فسهدت واستعرت مواقف عكاظ على ما عهدت لما قررت من الفضل إلاّ ما به الأعداء قد شهدت، ولا استقصيت من المجد إلاّ ما ما أوصت به الفئة الشائئة لخلفها الأبتر وعهدت، فقد كان رحمه الله علم الكمال، ورجل الحقيقة وقارا لا يخف راسيه، ولا يعرى كاسيه، وسكونا لا يطرق جانبه، ولا يرهب غالبه، وحلما لا تزل حصاته، ولا تهمل وصاته، وانقباضا لا يتعدى رسمه، ولا يتجاوز حكمه ونزاهة لا ترخص قيمتها، ولا تلين عزيمتها، وديانة لا تحسر أذيالها، ولا يشف سربالها، وإدراكا لا يفل نصه، ولا يدرك خصله، وذهنا لا يخبو نوره، ولا ينبو مطروره، وفهما لا يخفى فلقه، ولا يلحق [طلقه، وصدقا لا يخلف موعده، ولا يأسن مورده، وحفظا لا يسبر غوره، ولا يذبل نوره بل لا يطرق][1] بحره، ولا يعطل فخره، وتحصيلا لا يفلت قنيصه، ولا يسأم حريصه، بل لا يحل عقاله، ولا يصدأ صقاله، وطلبا لا تنحد[2] فنونه، ولا تتعين عيونه، بل لا تحصر معارفه، ولا تقصر مصارفه.

انتهى المقصود منه، وبعض كلامه أردت لا كله، إذ هو اللائق بوصف القاضى أبى الفضل عياض إمام الملة.

قال الملاحى: كان القاضى عياض - رحمه الله تعالى - بحر علم، وهضبة دين وحلم، أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع، وبلغ من معرفته الطول والعرض، وبرز فى علم الحديث، وحمل راية الرأى، ورأس فى الأصول، وحفظ أسماء الرجال، وثقب فى علم النحو، وقيد اللغة، وأشرف على مذاهب الفقهاء، وأنحاء العلماء، وأغراض الأدباء.

انتهى كلام الملاحى.

---

(١) ما بين الحاصرتين تكملة عن نيل الابتهاج.

(٢) فى سائر الأصول: «لا تتحد» والمثبت من نيل الابتهاج.

وقال ابنه القاضى أبو عبد الله بن عياض رحمه الله[1]:

نشأ أبى على عفة وصيانة، مرضى الحال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفا بالنبل والفهم والحذق، طالبا للعلم، حريصا عليه، مجتهدا فيه، معظما عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، إلى أن برع فى زمانه[2]، وساد جملة أقرانه، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه وكان من أئمة الحديث فى وقته، أصوليا متكلما، فقيها، حافظا للمسائل، عاقدا للشروط، بصيرا بالأحكام نحويا، ريان من الأدب، شاعرا مجيدا، كاتبا خطيبا، حافظا للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة[3]، حلو الدعابة، صبورا حليما، جميل العشرة، جوادا سمحا، كثير الصدقة، دءوبا على العمل، صليبا فى الحق، وبلغ فى التفنن فى العلوم ما هو مشهور، وفى العالم معلوم.

قال ابنه وابن خاتمة فى مزية أَلْمَرِيَّةَ:

وأخذ عن أشياخ بلدته سبتة: كالقاضى أبى عبد الله بن عيسى، والخطيب أبى القاسم، والفقيه أبى إسحاق بن الفاسى، وغيرهم. ثم رحل إلى الأندلس، وكان خروجه من سبتة يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمس مئة، فوصل إلى قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة، فأخذ بها عن ابن عتاب، وابن حمدين، وابن الحاج، وابن رشد، وأبى الحسين بن سراج، وأبى الحسن بن مغيث، وأبى القاسم بن النحاس، وأبى بحر الأسدى، وأبى القاسم بن بَقِىّ وأبى الوليد هشام بن أحمد بن العواد،

---

(١) الإحاطة ٤/ ٢٢٢.

(٢) فى سائر الأصول: «إلى أن برع أهل زمانه» والمثبت رواية الإحاطة ج٤ ص ٢٢٢.

(٣) فى سائر الأصول: «النادر» والمثبت رواية الإحاطة.

وغيرهم من أعلام قرطبة. ثم خرج منهـا إلى مرسية يوم الاثنين لخمس بقين من المحرم سنة ثمان من التاريخ، فوصل مرسـية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده.

كذا قال ولده، وهو أعرف.

وقال ابن خاتمة فى مـزية ألمرية: إنه وصل مرسية فى غرة صفـر فوجد الحافظ أبا على الصدفى مـختفيا قال ابن خاتمة: وكـان اختفى قبل ذلك بأيام لنبذه خطة القضاء من غـير أن يعفى - ووجد الرحالين إليه قـد نفذت نفقات بعضـهم، ومنهم من ابتـدأ كتـابا لم يتمـه، فأخذ أكـثرهم فى الـرجوع إلى مواطنهم، وتربص بعضهم فمكث هو بقـية صفر وشهر ربيع الأول لا يقع له على خبر، سوى الظن بكونه هنالك، وقـابل أثناء ذلك بأصوله، وكتب منها ما أمكن على يد خاصـة من أهله، ولا يشك أنَّ تصرفه فى ذلك لم يكن إلاّ بأمره، إلى أن وصل كتاب قاضى الجماعة أبى محمّد بن منصور بحل القاضى أبى على عن القضاء.

قال ابنه: ووصل كـتابه إلى أبى مـعلما له بذلك، إذ كـان يَكْرُمُ عليه، وعلم برحلته إليه، فخـرج أبو على من اختفائه وجلس للتسمـيع فسمع عليه كثيرا، ولازمه، وكان له به اختصاص، فحصل له سماع كثير، فى أمد يسير.

قال ابن خاتمة: سمع عليـه الصحيحين، والمؤتلف والمختلف، ومـشتبه النسبة لعبد الغنى، والشهاب للقضـاعى، وغير ذلك، وكتب عنه فوائد كثيرة وعارض بأصوله وأجاز له جميع رواياته.

قال ابنه رحمه الله: حكى أبو الفضل عـياض رحمه الله أنَّ القاضى أبا على الصـدفى رحمـه الله قـال له: لولا أن الله يسر خـروجى بلطفـه لكنت عزمت أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس، لا يؤبه لكونى

فيه، فتدخل إليه، وأخرج مختفيا إليه بأصولى، فتجد ما ترغب، لما كان فى نفسى من تعطيل رحلتك، وإخفاق رغبتك.

ولقى فى رحلته هذا قولهم: جماعة من أعلام الأندلس، وأجازه أبو على الجيانى، وشريح، وابن شِبْرين، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس، وأجازه أيضًا أبو جعفر بن بشتغير، وابن الأنقر، وأبو زيد بن منتيل وغيره من أعلام شرق الأندلس.

قال ابن خاتمة:

وفى رحلته هذه دخل أَلْمرية، وبها لقيه القاضى أبو جعفر بن مضاء.

قال ابنه: ووصل بلده بعد هذه الرحلة ليلة السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وخمس مئة، وأجلسه أهل بلده للمناظرة عليه فى المدونة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاما، وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى، ثم ولى القضاء عام خمس عشر وخمس مئة لثلاث بقين من صفر، فسار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة، مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية فى جامع سبتة التى كمل بها جماله، وبنى فى جبل المينا الرابطة المشهورة، إلى غير ذلك من الآثار المحمودة والمساعى المرضية، فعظم جاهه، وبعد صيته.

ثم نقل إلى غرناطة، ووصل إليه الكتاب بذلك فى أوّل يوم من صفر عام أحد وثلاثين وخمس مئة، فنهض إليها، وتقلد خطة قضائها على المعتاد من شيمته السنية، وأخلاقه المرضية، مشكورًا عند جميع الناس، لكن تاشفين ضاق به ذرعه وغص بمراقبته، وصد أصحابه عن الباطل وخدمته عن الظلم، وتشريدهم عن الأعمال، فسعى فى صرفه عن قضاء غرناطة، فصرف بعد

انفصاله عنها زائرا أهله، وترك ابن أخيه الزاهد أبا عبد الله رحمه الله، على الأحكام وذلك فى رمضان المعظم عام اثنين وثلاثين وخمس مئة.

ثم ولى قضاء سبتة ثانية فى آخر عام تسعة وثلاثين وخمس مئة، قدمه إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين، فابتهج أهل بلده بذلك فسار فيهم السيرة التى عهدوا منه، ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول فى نظام الموحدين، والاعتصام بحبلهم المتين، فأقره أمير المؤمنين أدام الله أمره على ما كان عليه، وصرف أمور بلده إليه، وخاطبه بالتنويه، وحظى عنده وشكر بِدَارَه وسبقه. ثم رحل إليه فاجتمع به بمدينة سلا عند توجهه إلى محاصرة مراكش، فأوسع له وأجزل صلته، ولقى منه برا تاما وإكراما عاما، وانصرف إلى أحسن حال إلى أن ثارت الفتنة.

انتهى كلام ولده، وسنذكر بقيته فى محله إن شاء الله تعالى.

وقال الشيخ العلامة أبو زيد عبد الله الرحمن الغرناطى المعروف بابن القصير رحمه الله: لما ورد علينا القاضى عياض غرناطة خرج الناس للقائه وبرزوا تبريزا ما رأيت لأمير مُؤَمَّر مثله، وحَزَرْت أعياد البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتى راكب، ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة، وخرجت مع أبى رحمه الله تعالى فى جملة من خرج، فلقيناه شخصا بادى السيادة منبئا عن اكساب المعالى والإفادة. قال: وكان وروده علينا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثلاثين وخمس مئة. انتهى.

وانظر قوله سنة ثلاثين مع ما تقدم لولده من أن ولايته قضاء غرناطة سنة إحدى وثلاثين، فلا أدرى أيهما أصوب، إلاّ أن يقال أحدهما تحريف من الناسخ. والله اعلم.

ثم إنى رأيت فى الإحـاطة، أنه تولى قضـاء غرناطة عام أحـد وثلاثين فتبين أنَّ ذلك هو الصواب. ورأيت مثله فى غـير موضع، فبان أنّه لا تحريف فيه. ويبقى النظر فى الآخر المنقول عن عـبد الرحمن بن القصير وقد نقله ابن جابر الوادى آشى عن عبد الرحمن المذكور كما حكيته سنة ثلاثين فالله اعلم.

ثم قال عبد الرحـمن المذكور: ولما استقر عندنا كان مـثل التمرة: كلما ليكت زاد حـلاوة، ولفظه عذب فى كل مـا صرف من الكلام، للنفس إلـيه تتوق وله طلاوة، وكان برا بلسـانه، جوادا ببنانه، كثير التـخشع فى صلاته، مواصلا لـصلاته، وقد جمـعنا من سيره جمـلا فى الكتاب الذى جمعنـا فيه مناقب من أدركنا من أعـيان عـصرنا ونبـهائه، وذكـرنا له ما يفـاخر برونـقه وبهائه، وكـان مع براعته فى علوم الشريعـة خطيبا فى تجبـيره للخطب، وفى لفظه، ظاهر الخشوع عند التـلاوة، وفى لحظه، سريع العبرة، مديمـا للتفكير والعبرة، كاتبا إذا نثر، ناظما إذا شعر.

انتهى. نقله ابن جابر وغير واحد كابن رشيد.

وقال فى أوله ما نصه: قال أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد الأزدى: ولى عندنا ببلدنا غـرناطة حرسـها الله تعالى الفـقيـه الأجل الحافظ الأحـفل القاضى الأكـرم الأفضل الإمـام الخطيب المصـقع الأديب الأبرع أبو الفضل عياض. انتهى.

ونقلت من خط بعض تلامـذة ابن رشيد، وهو مـحمّد بن البـردعى ما نصه:

وعبد الرحـمن هذا قد سألت عنه شيخنا المذكـور - يعنى ابن رشيد - فقال لى: لم يُعَرِّف به أحد من أهل الصِّلات. قلت: ولا الملاحى أيضًا.

انتهى ببعض اختصار.

وكان الإمام القاضى أبو الفضل عياض رحمه الله كثير الإنصاف، ومما يدل على إنصافه الحق وتواضعه، ما حكاه عبد الرحمن المذكور آنفا إذ قال: دخلت مجلس القاضى أبى الفضل عياض رحمه الله تعالى إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة، وبه جماعة من الطلبة الأعيان يسمعون تأليفه المسمى بالشفا، فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات: «ومن قسم به أقسط» قرأه ثلاثين وكذلك كان فى الأم التى كان يقرأ فيها، فقلت للقاضى وصل الله توفيقه: هذا لا يجوز فى هذا الموضع. فقال: ما تقول؟ فقلت: إنما هو أقسط لأن المراد فى هذا الموضع «عدل» فالفعل منه رباعى كما قال الله تعالى: ﴿... وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ [الحجرات]. وأما قسط فإنما هو «جار» كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)﴾ [الجن]. فتعجب وقال لمن حضر: إنَّ هذا الكتاب قد قرأه على من العالم ما لا يحصى كثرة، ولا أقف على منتهى أعدادهم، وما تنبه أحد لهذه اللفظة. وفاه بلسان الإنصاف وشكر بفضله، وأبلغ ببراعة علمه فى تحسين المناقب والأوصاف، وأورثنى ذلك عنده كرامة كبيرة ومبرة ولم تزل مستمرة، وصنع من المكارم أجزل صنيع وأبره، رحمه الله من طود علم، وهضبة فضل، وحلم، وتغمده إيانا برحمته، ونفعه كما نفع فى الدنيا والآخرة بعلمه. انتهى.

قلت: وقد رأيت نسخة من الشفا بخط هذا الشيخ عبد الرحمن المذكور، وحكى هذه المسألة فى الطرة بخطه، كما نقلته حرفا حرفا إلاّ قوله: «المسمى بالشفا» فإنه لم يقله. وألفيت فى آخر هذه النسخة بخط الفقيه محمّد ابن البردعى المتقدم الذكر، تلميذ ابن رشيد الفهرى عندما ذكر هذه الحكاية، ما نصه:

وعبد الرحمن هذا هو كاتب هذه النسخة، وقد عاناها أحسن معاناة، إلاّ الكراسة الأخيرة، فإنها ليست بخطه، وقد ذكر هذه الحكاية فى بعض طرره المتياسرة، حيث وقعت اللفظة المذكورة منه، وأثبتها هنالك بخطه، كما أثبت غيرها مما يدل على علمه وتفننه فى المعارف. وقد سألت عنه شيخنا أبا عبد الله المذكور - يعنى ابن رشيد - فقال لى: لم يعرف به أحد من أهل الصلات. قلت: ولا الملاحى أيضًا.

انتهى ما ألفيته بخط ابن البردعى، وقد نقلت بعضه قبل هذا بأسطر، وأعدته هنا لارتباط بعضه ببعض، والله الموفق.

قلت: ما ذكره ابن رشيد وتلميذه ابن البردعى، من أنَّ عبد الرحمن المذكور لم يعرف به أحد من أهل الصلات، قصور واضح، وكذا قول ابن البردعى إنَّ الملاحى لم يذكره، فقد ذكره الملاحى وأبو جعفر بن الزبير فى صلة الصلة وكناه أبا جعفر، لا أبا القاسم، ولا أبا زيد، كما كناه ابن جابر وغيره مما ذكرناه.

ونص ما فى صلة ابن الزبير[1]: عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمّد الأزدى، من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن القصير، من بيت شورى وجلالة، روى عن أبيه القاضى أبى الحسن أحمد بن أحمد، وعن عمه أبى مروان عبد الملك بن أحمد، وعن أبوى الحسن بن درى وابن الباذش، وأبى الوليد بن رشد، وأبى إسحاق إبراهيم بن رشيق الطليطلى، نزيل وادى آش، وأبى بكر بن العربى، وأبى الحسن بن موهب، وأبى محمّد عبد الحق بن غالب بن عطية، وأبى عبد الله بن أبى الخصال، وأبى الحسن يونس بن مغيث، وأبى القاسم بن ورد، وأبى بكر بن مسعود الخشنى، وأبى

(١) ابن الزبير: صلة الصلة ج٣ ص ١٨٨.

القاسم بن بقى، وأبى الفضل عياض بن موسى وغيرهم، وكان فقيها مشاورا، رفيع القدر، جليلا بارع الأدب، عارفا بالوثيقة، ناقدا لها، صاحب رواية ودراية، تقلب ببلاد الأندلس، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها، ورحل إلى مدينة فاس، فأخذ الناس عنه بها، ثم رحل إلى إفريقية وولى قضاء تقيوس، ببلاد الجريد، بمقربة من توزر، ثم ركب البحر قاصدا الحج، فتوفى شهيدا فى البحر، قتلته الروم بمرسى تونس، مع جماعة من المسلمين، صبح يوم الأحد، فى العشر الوسط من شهر ربيع الآخر، سنة ست وسبعين وخمس مئة.

وله تواليف وخطب ورسائل ومقامات، وجمع مناقب من أدركه من أهل عصره، واختصر كتاب الحيل لابن خاقان الأصبهانى، وغير ذلك، وألف برنامج يضم رواياته. ذكره أبو القاسم بن الملجوم فى برنامجه، وروى عنه، واستوفى خبره، وذكره الملاحى، وذكره الشيخ فى الذيل، فيمن أسمه أحمد، وغلطه فى ذلك الكنية، ثم ذكره فيمن اسمه عبد الرحمن، وظن أنهما رجلان. انتهى كلام صاحب الصلة[1].

قلت: ولعل الحامل لابن رشيد وتلميذه على هذا القصور، اعتمادهما على الكنية، التى هى أبو زيد وأبو القاسم، وقد عرفت أنَّ صاحب الصلة قد كناه بأبى جعفر فقط، فلعلهما لم يقفا على ما ذكرناه من التعريف به أصلا، أو وقفا على أوله، حين رأيا صاحب الصلة كناه أبا جعفر، ظنا أنه غيره، ولم يمعنا النظر فى الترجمة إلى آخرها. وإلى الله مرجع العلم.

ثم إنَّ الغلط فى أمره وقع قبلهما لصاحب الذيل، كما قاله ابن الزبير. والله سبحانه أعلم بالصواب.

(١) ابن الزبير: صلة الصلة ج٣ ص ١٨٨.

قلت: وقد ذكرت فى هذا الموضوع بعض فوائد عبد الرحمن المذكور، المكتوبة بهامش الشفا، الذى بخطه، فراجعه فى ترجمة تآليف عياض، عند ذكر كتاب الشفا.

وقال الفقيه الأجل، الراوى العدل، الزاهد الصالح، أبو القاسم خلف ابن عبد الملك بن بشكوال رحمه الله، فى ذكر القاضى أبى الفضل عياض فى صلته، ما نصه[1]:

عياض بن موسى بن عياض اليحصبى، من أهل سبتة، يكنى أبا الفضل، قدم الأندلس طالبا للعلم، وأخذ بقرطبة عن القاضى أبى عبد الله محمد بن على بن حمدين، وأبى الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج، وعن شيخنا أبى محمد بن عتاب، وغيرهم، وأجاز له أبو على الغسانى ما رواه، وأخذ بالمشرق عن القاضى على حسين بن محمّد الصدفى كثيرا، وعن غيره، وعنى بلقاء الشيوخ، والأخذ عنهم، وجمع من الحديث كثيرا، وله عناية كبيرة به، واهتم بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن فى العلم، والذكاء واليقظة الفهم، واستقضى ببلده مدة طويلة، فحمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمده بها، وقدم علينا قرطبة فى ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، وأخذنا عنه بعض ما عنده. وسمعته يقول: سمعت القاضى أبا على بن محمّد الصدفى يقول: سمعت الإمام أبا محمّد التميمى ببغداد يقول: ما لكم تأخذون العلم عنا، وتستفيدونه منا، ثم لا تترحمون علينا! فرحم الله جميع من أخذنا عنه، من شيوخنا وغفر لهم[2].

ثم كتب إلى القاضى أبو الفضل بخطه، فذكر أنّه ولد فى منتصف شعبان من سنة ست وسبعين وأربع مئة، وتوفى رحمه الله بمراكش، مغربا عن وطنه، وسط سنة أربع وأربعين وخمس مئة. انتهى كلام ابن بشكول فى

(١) ابن بشكوال: الصلة ص ٤٢٩، والمرقبة العليا ص ١٠١.

(٢) فى سائر الأصول: «وغيرهم» والمثبت رواية الصلة وهو الصواب.

الصلة، وذكرته كله وإن كان بعضه قد تقدم ما يغنى عنه، وبعضه يأتى، لأنه كلام ارتبط ببعضه.

ورأيت فى كتاب «المرقبة العليا[1]، فى الأقضية والفتيا» للقاضى الخطيب أبى الحسن على بن عبد الله بن الحسن النباهى الغرناطى، رحمه الله، بعد أن ذكر كلام صاحب الصلة السابق، ما نصه:

قلت: وسكن القاضى أبو الفضل هذا بمالقة مدة، وتمول بها أملاكا، وأصله من مدينة بسطة، ذكر ذلك ولده محمد بن عياض[2]، فى الجزء الذى صنفه فى التعريف به وبتواليفه، وبعض أخباره وخطبه، تغمده الله وإيانا برحمته، انتهى.

وقال صاحب المطمح والقلائد فى وصف القاضى عياض ما نصه: «جاء على قدر، وسبق إلى نيل المعالى وابتدر، فاستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حيام، وجلى من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل، فتحلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور، ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)﴾ [الرحمن]، ﴿... لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦)﴾ [الرحمن] قد ألحفته الأصالة رادءها، وسقته أنداءها، وألقت إليه الرياسة مقاليدها، وملكته طريفها وتليدها، فبذ على فتائه الكهول، سكونا وحلما، وسبقهم معرفة وعلما، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت بفضائله مسرى الرياح، فتشوقت لعلاه الأقطار، ووكفت تحكى نداه الأمطار، وهو على اعتناء بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعنى بإقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حدب»[3].

قال ابن جابر: هكذا وصفه صاحب المطمح. انتهى.

---

(١) المرقبة العليا ص ١٠١.

(٢) فى سائر الأصول: «حفيده» والصواب ما أثبتناه.

(٣) قلائد العقيان ص ٦٨٣.

وهذا يدل على أنَّ بعض ألفـاظ المطمح كـألفاظ القـلائد لأن هذا الذى نقله ابن جابر عن المطمح، هو بعينه فى قلائد العـقيان، وزاد بعد قوله: «من كل حدب» ما نصه: إلى سكون ووقار كمـا رسا الطود، وجمال مجلس كما حليت الخود، وعـفاف وصـون، ما علما فـساد بعد الكـون، وبهاء، لو رأته الشمس ما باهت بأضواء، وخفر، لو كان للصبح ما لاح وأسفر. انتهى[1].

وقد رأيت بعض أوراق من المطمح، بخـزانة الكتب من الجامع الأعظم بتلمسان، حـرسها الله، أعنى الخزانة الوسطى، التى فوق مـحراب الصحن، وهى التى يجلس بها الأشراف، أحفاد الشيخ الإمام، علم الأعلام سيدى أبى عبـد الله الشـريف التلمسـانى، رحمـه الله تعالى، شـارح جمل الخـونجى، وصاحب التآليف المشـهورة، المبرز على علماء المعقـول المنقول، وعادة هؤلاء الأشراف أن يجلسوا بها يوم الجمعة، بعـد الصلاة وقبلها، فوجدت ألفاظه - أعنى المطمح - كألفاظ القلائد، من غيـر فرق، غير أنّه فى المطمح ذكر رجلاً لم يذكـرهم فى القـلائد، فظهر مـن مقـتضـى ذلك أنَّ المطمح إنما زاد على القلائد فى الرجال، وأما ما اتفقنا عليه فلفظهما فيه واحد[2].

وذكر غيـر واحد من الأئمة أنَّ المطمح ثلاث نسخ: كـبرى، ووسطى، وصغرى. وأصل تسميته: «مطمح الأنـفس، ومسرح التأنس، فى ذكر أعيان الأندلس».

ولعلنا نذكـر فيمـا يأتى من هذا الكتاب إن شـاء الله تعالى، التـعريف بصاحب المطمح والقلائد المذكور، وهو الفـتح بن عبد الله، الكاتب المعروف بابن خاقـان، فى موضع هو أنسب من هذا، والله سبـحانه المستعـان، نسأله سبـحانه أن يـيسـر علينا كل مرام، ويغـتمـد بالعفـو ما ارتكبناه مـن إصرار

(١) قلائد العقيان، ص ٦٨٤.

(٢) مطمح الأنفس، ص ١١٢.

وإجرام، بجاه أشرف الخلق، ووسيلتهم إلى الحق، سيدنا محمّد بن عبد الله ابن عبد الطلب بن هاشم، عليه من الله أفضل صلواته وأزكى سلامه، وعلى جميع إخوانه المرسلين والنبيين، وعلى آله، وأصحابه، وأشياعه، وأنصاره، وأزواجه، وذريته، وأهل بيته الطاهرين.

وكان القاضى أبو الفضل عياض - رحمه الله - حسن الإلقاء للمسائل، كثير التحرير للنقول، وقد انتفع به من العلماء ما لا يحصى، كأبى زيد عبد الرحمن بن القصير، المتقدم الذكر.

وممن أخذ عنه القاضى الشهير أبو جعفر أحمد بن عبد الله الرحمن بن مضاء اللخمى رحمه الله، وقد قدمنا أنّه لقيه بألمرية.

وكان القاضى أبو الفضل رحمه الله تعالى وقورا، ذا سمت حسن، وهدى مستحسن، وربما تقع منه دعابة، كما تصدر من الفضلاء أمثاله.

ومن دعابته ما حكاه ولده، قال:

قال بعض أصحابنا: صنعت أبياتا تغزلت فيها، والتفت إلى أبيك رضى الله عنه، ثم اجتمع بى، فاستنشدنى إياها، فوجمت، فعزم على، فأنشدته:

أيا مكثرا صَدِّى ولم آت جفوة ... وما أنا عن فعل الجفاء براضى

سأشكو الذى توليه من سوء عشرة ... إلى حكم الدنيا وأعدل قاضى

ولا حكم بينى وبينك أرتضى ... قضايا فى الدنيا سوى ابن عياض

قال: فلما فرغت حَسَّن وقال: ومتى عرفتنى قوادا يا فلان، على طريق المداعبة، رحمه الله تعالى، ورضى عنه وأرضاه.

وكان القاضى أبو الفضل رحمه الله كثير الاعتناء بالتقييد والتحصيل.

قال ابن خاتمة: كان لا يبلغ شأوه، ولا يدرك مداه، فى العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل فى فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالآداب، وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته فى الفقه، ومشاركته فى اللغة والعربية.

وبالجملة فكان جمال العصر، ومفخر الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عدت رجالات المغرب، فضلا عن الأندلس، حسب فيهم صدرا. انتهى. وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه.

وكان رحمه الله تعالى معظما للسنة، عالما عاملا، خاشعا قانتا، قوالا للحق، لا يخاف فى الله تعالى لومة لائم. وكان رحمة الله معتنيا بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طرقها، وكتابه «المشارق» أزكى شاهد على ذلك، ولقد كان بعض من لقيته من صلحاء عصرنا وعلمائه يقول: لا أحتاج فى كتب الحديث إلاّ للمشارق، فإذا كان عندى، فلا أبالى بما فقدت منها، أو كلامًا هذا معناه. وسنذكر إن شاء الله تعالى بعض ما قيل فى كتاب المشارق فى محله من هذا الموضوع.

وكان رحمه الله حاضر الجواب حاد الذهن، متوقد الذكاء، جامعا للفنون آخذا منها بالحظ الأوفر.

وكان القاضى أبو الفضل عياض رحمه الله بارع الخط المغربى، وقد وقفت على خطه رحمه الله، فرأيت خطا رائقا، وكان سريع الوضع، ويدل على ذلك كثرة أوضاعه، وكتب مع ذلك كتبًا كثيرة بيده.

وكان رحمه الله تعالى حسن العبارة لطيف الإشارة، وتآليفه شاهدة بذلك، وله فى الفقه المالكى اليد الطولى، وعليه المعول فى حل ألفاظ المدونة

وضبط مشكلاتها، وتحرير رواياتها، وتسمية رواتها. وتحقيق ذلك أنه جمع بين شرح المعانى وإيضاحها، وضبط الألفاظ، وذكر من رواها من الحفاظ.

صناعة التأليف بالمغرب

ولقد وقفت فى بعض التعاليق لأحد المتأخرين على كلام فى صناعة التأليف، رأيت أنَّ أجلبه جميعه، لمّا فيه من ذكر بلاغة القاضى عياض، ونصه:

وقد كان للقدماء، رضى الله عنهم، فى تدريس المدونة اصطلاحان: اصطلاح عراقى، واصطلاح قروى. فأهل العراق جعلوا من مصطلحهم مسائل مدونة كالأساس، وبنو عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين. وأما الاصطلاح القروى فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع من السماع، وافق ذلك عوامل الأعراب أو خالفها.

فهذه كانت سيرة القوم رضوان الله عليهم، إلى أن عم التكاسل، وصار رسم العلم كالماحل. ويحقق ما قلناه تصرف التونسى فى تعاليقه اللطيفة المنزع، واللخمى فى تبصرته البارعة الختام والمطلع، إلى غير ذلك من تآليف القرويين وتعاليق المحققين، من شيوخ الإفريقيين.